من تراب (٣٦٥) ما شأن معالى الوزيرة !(*) الطريق

قرأت للدكتورة لميس جابر ، مقالات ساخنة ختمتها بواحد أهدأ قليلا ، توجعًا وأسفًا من تردى أحوالنا حتى صرنا نصدر نساءنا وبناتنا للخدمة فى بيوت الأشقاء فى الكويت أو غيرها من الدول الثرية .. ولا جدال أن غيرة الدكتورة لميس فى محلها ، وكذلك غضبها ، وهى ليست فى حاجة للاعتذار عنهما لا للإخوة الأشقاء فى الكويت وسفيرها الموقر المهذب ، ولا للسيدة عائشة عبد الهادى وزيرة القوى العاملة المصرية ، فالجميع لا بد يتفهمون ، وفى إمكانهم أن يتفهموا ، أن الغضب أو الحدة تنصرف إلى الوضع المصرى الذى يضنى كل مصرى أن تتراجع مصر ، فتصدر نساءً وبناتٍ للخدمة فى البيوت ، بعد أن كانت تصدر قامات مثل السنهورى باشا الذى وضع الدستور الكويتى ، والدكتور إبراهيم عبده خبير الصحافة والمطبوعات والنشر ، وزكى طليمات الذى أسس المسرح الكويتى .. وواقع الأمر أن هذه القائمة الرفيعة لا تنتهى ، فقد ظلت رئاسة تحرير مجلة العربى الكويتية منذ أنشئت ، وحتى عهد قريب ، معقودة للمفكرين والكتاب المصريين أمثال الدكتور أحمد زكى والأستاذ أحمد بهاء الدين ، ولا تزال بالكويت ذكرى قامات مصرية رائعة مثل

(*) المال ١/ ١٢/ ٢٠٠٩

الدكتور فؤاد زكريا والدكتور عبد العزيز كامل وزير الأوقاف المصرى فيما بعد ، وغيرهم من العلماء والمفكرين والأدباء .

والواقع أن الكويت لا تزال للآن تعتمد وترحب بقامات مصرية رفيعة فى القضاء ، وفى الطب ، وفى الهندسة ، ولا زال المحامون المصريون قبلة الزملاء فى الكويت ، سواء للعمل معهم فى مكاتبهم أو لتكليفهم بالدفاع معهم فى كبريات القضايا .. ولا يزال الحضور المصرى فى الكويت وغيرها شاهدًا على ثراء الشخصية المصرية فى مختلف المهن والأعمال والوظائف والأدوار !

النقطة الأولى التى أريد توضيحها ، أنه لا يجدر بنا أن نشعر بالمهانة من سعى بعض نسائنا وبناتنا للبحث عن عمل شريف بخارج الديار .. ظنى أن المهانة استشعرتها الدكتورة لميس من تراجع الدور والعطاء المصرى ، لا من عملٍ بذاته .. فالأعمال تتفاوت تبعا للثقافة والعلم والمؤهلات والخبرة والمقدرة ، سواء فى مصر أو فى خارج مصر ، فكل من الطبيب والمهندس والعالم والمفكر والكاتب والفنان والصحفى والقاضى والمحامى والأستاذ والمدرس والصيدلى ـ فى حاجة لمن يكمله بالنهوض فى حياته بما لا يستطيع هو النهوض به بجوار ما يضطلع به من مهام وأعمال .. هذه الأعمال أيًا كانت أنواعها ذهنية أو مهنيّة أو حرفيّة أو يدويّة ـ لا عيب ولا مهانة ولا هوان فيها ، طالما أن قوامها الشرف والإخلاص فى أداء الواجب !

ربما ساهمت بعض أعمالنا الفنية والأدبية فى ترسيخ صورة سلبية

للفوارق الاجتماعية ، وتصنيف الناس إلى طبقات ، فنرى بعض الأعمال الأدبية أو الفنية مجدولة على الدهشة أو الاندهاش من تلاقى القلوب رغم هذه الفوارق ، فتتحدث عن غرام الأسياد ، والبيه والشغالة ، أو غير ذلك ، مما لا نجد له مثيلا أو شبيها فيما تصوره الحضارة الغربية من أدبيات لا تفرق بين الطبيب والتومرجى ، ولا بين السيد والخادم ، ولا بين الصيدلى والعامل ، ولا بين أحد من أصحاب المهن أو الحرف الفنية أو اليدوية .. وفى الحديث : «من أمسى كالًا من عمل يده ، أمسى مغفورًا له» .

قد نتفق وقد نختلف حول تعبير «المهانة» التى يشعر بها البعض من جراء تصدير أو خروج المصريات للخدمة بالبيوت بخارج البلاد .. قد يرى البعض أن ذلك مهانة وهوان ، وقد يكتفى البعض بالشعور بغصة ، ولكن المؤكد أن الجميع يتمنون أن يكون الناتج البشرى المصرى للتصدير معبرًا عن تقدم مصر وحضارتها !

إذن .. هذه هى النقطة المحز ، أننا لم نعد كما كنا .. ولم نعد نفرخ أمثال السنهورى وأحمد زكى وأحمد بهاء الدين وزكى طليمات وعبد العزيز كامل وفؤاد زكريا ، ولكن هل هذا مسئولية وزيرة القوى العاملة ، أم أنه مسئولية حكومة بل ومجتمع ونظام بأسره ؟ هل وزارة العمل أو القوى العاملة هى المسئولة عن التعليم بعامة والتعليم الجامعى فى مصر ؟ هل هى المنوط بها تخريج العلماء والأطباء والمهندسين والصيادلة والزراعيين والتجاريين والحقوقيين ؟ هل هى المسئولة عن الثقافة والفكر والإعلام ؟ هل تملك هذه الوزارة تكوين العقل الجمعى وإفراز الكفاءات المتميزة فى

الطب والهندسة والعلوم والصيدلة ؟

فلماذا نسحب القضية من النظام المسئول عنها ، ونعفى الحكومة والهيئات المختصة بالتربية والتعليم والتثقيف ورعاية المواهب المنوط بها إخراج الكفاءات والعبقريات ، ونحصر الأمر الذى أضنانا ـ فى السيدة عائشة عبد الهادى ونلقى عليها وحدها بمسئولية قضية ضاربة الأطناب يُسأل عنها النظام والمجتمع بأسره ؟!

وإذا كنت لا أجارى الشعور بالمهانة ، فالعمل شرف ولا تلحق المهانة إلاَّ بمن يخرج عن مقتضيات هذا الشرف سواء فى الخدمة فى البيوت ، أو فى العمل بالطب أو الهندسة أو الصيدلة أو القانون أو الزراعة أو التجارة أو الصناعة .. إلاَّ أننى أدعو الجميع للتوقف إزاء تصاغر الناتج المصرى البشرى ، والتأمل فيما أدى ويؤدى إلى ذلك ، وسبل تداركه .. قد حاولت شيئًا من ذلك فى كتاب الهجرة إلى الوطن ، بيد أن الواضح أن الكل صاروا يحرصون على الهجرة من الوطن !!

*****